مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العدد: 02 (2022)، ص: 319- 328

التكنولوجيا الرقمية و الهوية الثقافية- دراسة في القيم الثقافية العربية

الزهرة بلعليا[1]
[1]جامعة الجزائر3 belalia.zohra@univ-alger3.dz

تاريخ الاستلام: 2022/04/01 تاريخ القبول: 2022/04/10 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

تعنى هذه الدراسة بكيفية ربط الأحداث والتطورات الاجتماعية التي تبدو متسارعة ومتتالية دون قيود- بسبب تكنولوجيا الاتصالات الرقمية- بما يحفظ القيم الثقافية العربية من الذوبان في الثقافة العالمية. إن سمة هذه الأحداث تهيمن على جميع مجالات الثقافة المعاصرة، فبعد انتشار المفاهيم التي تشكلت من مكونات أفكار ما بعد الحداثة، أصبح الخطاب الثقافي غامضا في جميع مساراته المختلفة. هذا يعني أن الثقافة بالمعنى الكلاسيكي أصبحت عقيمة، و دون جدوى.

و بدأت موجة المجتمع الرقمي في خلق طرق حديثة لأنماط حياة جديدة بعد تلاشي نموذج الهويات التقليدية وظهور هويات جديدة، ذات بعد عالمي و قواسم مشتركة، خاصة ثقافة الجيل الجديد و التي أصبحت معقدة للغاية بحيث تحتوي على خطوط ومفاهيم متعددة تحت اسم الصناعة الثقافية، و بالتالي يصعب على القيم الثقافية العربية الصمود أمامها. خاصة و أن آليات الدفاع الاجتماعية تشكو من الهشاشة و عدم الكفاية في مواجهة المد الثقافي الكوني.

كلمات مفتاحية: التكنولوجيا الرقمية، الهوية الثقافية العربية، القيم الثقافية.

Abstract:

This study is concerned with how to link social events and developments that seem to be accelerated and successive without restrictions - due to digital communication technology - in a way that preserves Arab cultural values from dissolving into global culture. The feature of these events dominates all areas of contemporary culture, after the spread of concepts formed from the components of postmodern ideas, the cultural discourse has become ambiguous in all its different tracks. This means that culture in the classical sense has become sterile, and in vain.

And the wave of digital society began to create modern ways of new lifestyles after the fading of the traditional identities model and the emergence of new identities, with a global dimension and common denominators, especially the culture of the new generation, which has become so complex that it contains multiple lines and concepts under the name of the cultural industry, where it is difficult to Arab cultural values to withstand. Especially since the mechanisms of social defense complain of fragility and inadequacy in the face of the global cultural tide.

Keywords: Digital technology, Arab cultural identity, cultural values

---

المؤلف المرسل: الزهرة بلعليا

1. مقدمة:

إن الحديث عن الهوية الثقافية يجرنا الى الحديث عن كيفية ربط الواقع الاجتماعي بالتغيرات المتماشية مع متطلبات الحياة اليومية التي فرضتها التكنولوجيات الحديثة. و التي أفضت الى ما سماه رواد مدرسة فرانكفورت "الصناعة الثقافية" حيث بدأت ترسم لها هويات جديدة، غالبا ما تستند إلى تكنولوجيا المعلومات. هذه التكنولوجيا ولدت جيلا

مختلفا شكلا ومضمونا عن الاجيال السابقة، انه جيل ثورة المعلومات. على غرار مجتمع الثورة الصناعية. و المجتمع الزراعي قبل ذلك.

ومن أبرز سمات هذه المرحلة، ظهور المجتمع الشبكي Network Society، وقد تعددت صفاته في مرحلة ما بعد الحداثة التي وصفها هيرمان كاهن Herman Kahn بأنها جيل "مجتمع ما بعد الاقتصاد"، في حين وصفها دانييل بل Daniel Bell بانها مرحلة "ما بعد الصناعي post-industrial، وهو الوصف نفسه الذي أطلقه ألان تورين Alain Tourineعلى المجتمع ما بعد الصناعي بأنه مجتمع مبرمج، تهيمن عليه قوة التكنوقراط Technocracy ، في حين وصفها أميتاي اتزيوني Amitai Etzioni بمرحلة "ما بعد الحديث" وأحيانا أخرى باسم المجتمع الاستهلاكي The Consumer Society" وهو العنوان الذي اختاره Baudrillard لكتابه.

و يستمد المجتمع الشبكي ثقافته من عالم افتراضي يعج بالرسائل السياسية والاقتصادية والثقافية، مما أصبح يؤثر علي قيم وعادات وأساليب الحياة لملايين البشر الذين ينتمون إلي ثقافات تنافسية متنوعة. و على رأسها الثقافة العربية التي أبدت سرعة الذوبان في القوالب الفكرية الرأسمالية خصوصا بعد التدفق الحر للمعلومات، وبعد أن أصبحت هذه المعلومات ضمن هوية المشروع المستقبلي الذي ينبغي الاستثمار فيه، كونه أصبح سلعة لقيمة مضافة ووسيلة عالية الجودة، صارت المعلومات نفسها سلعة رئيسة تنتج لمن يتعاطى أكثر معها، لمن يتفاعل أكثر وتباع لمن يدفع أكثر.

هذا المدخل يجرنا الى طرح اشكالية أساسية و هي كيف يمكن للمجتمعات العربية أن تنجح في الاندماج في العالم الرقمي دون المساس بهويتها الأصيلة؟ و بعبارة أخرى هل الانخراط في بوتقة العالمية يزيح بالضرورة الثقافة المحلية للمجتمع العربي الطامح الى الاندماج في المنظومة الرقمية ؟

فرضيات الدراسة:

- تتمتع التكنولوجيا الرقمية بقوة التأثير و الاستقطاب.
- تعمل الصناعة الثقافية على قولبة الثقافات المحلية و امتصاصها.
- تعاني القيم الثقافية العربية من الذوبان في الثقافة العالمية باعتبارها حتمية تكنولوجية بحتة.

منهج الدراسة:

الدراسة التي بين أيدينا، دراسة نظرية بحتة تستخدم المنهج الوصفي في تناول جوانب تأثير التكنولوجيا الرقمية على الثقافات المحلية. و خصوصا أثرها على القيم الثقافية العربية.

أهداف الدراسة:

- الوصف الموضوعي لواقع التكنولوجيا الرقمية.
- ابراز العلاقة بين التكنولوجيا الرقمية و الهوية الوطنية.
- تبيان دور الصناعة الثقافية في قولبة القيم الثقافية العربية.

1- الهوية الثقافية بين الاصالة و المعاصرة:

لقد أحدثت عديد التطورات التكنولوجية على امتداد القرن العشرين تغييرات جذرية في تقنية صناعة المعلومة المعرفية، مثل، ثورة الأنفوميديا والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء.

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية إلى هذه الثورات المعرفية، فإن الفكر العربي يأبى الخوض في تجربة المشاركة في صنع هذه الثورات ويلوح بمثابة الفكر الذي لا يشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تغمر الثقافة العربية بكل مرونة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد على تأخر الفكر العربي، في جميع المجالات، إهمال العرب للغتهم، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية.

فالحضارة العربية، في منظورنا، لم تقدم ما يلزم للأجيال القادمة من وعي ثقافي للعالم الافتراضي في مجرياته السليمة التي من شأنها أن تسهم في صناعة الوعي الاجتماعي. وبالنظر إلى أن الفارق الرقمي خلق فجوة بين الثقافات المتحضرة في صورة الآخر والثقافات المحلية في صورة الأنا، فقد تفاقم فارق الوعي المعرفي والثقافي، و ظهر تعبير (الفارق الرقمي) بسرعة بحيث أنه دخل الأحاديث اليومية للإشارة إلى كل أشكال عدم المساواة في مجتمع الشبكة.

و يفهم تعبير الفارق الرقمي في هذه الثقافات على أنه ظاهرة متعددة الأبعاد تشتمل على ثلاثة أوجه مميزة. يشير (الفارق العالمي) إلى الاختلاف في الدخول إلى شبكة الأنترنت بين المجتمعات الصناعية النامية، ويهتم (الفارق الاجتماعي) بالفجوة ما بين الأغنياء بالمعلومات والفقراء لها في كل دولة، وأخيرا ضمن مجتمع الشبكة ذاتها، يعني (الفارق الديمقراطي) و نقصد به الفرق الموجود بين من يستخدمون ومن لا يستخدمون غطاء المصادر الرقمية لتحريك الحياة العامة والمشاركة بها. (بيبا نوريس، 2006، ص 18).

2 . المجتمع الرقمي والهوية الوطنية:

لقد أثبتت التجارب الثقافية أن المرء الذي لا يدرك مهارات الفارق الرقمي لا يمكنه أن يسهم في مواكبة التطور المعرفي، أو الحفاظ على هويته، كما أن تشخيص ملامح هذه التكنولوجيا لدى الفرد يكمن في توسع بعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلوم بسرعة يصعب فيها على غير المستثمر للتكنولوجيا الرقمية و غير المتمكن منها إدراك الأشياء. في حين، يسهل على المدرك لها كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر، الأمر الذي يسهم في نمو معارفه وأفكاره في الحياة العملية والعلمية. كما أن الكفاية الرقمية تعتبر حصانة وضمانا من أي ضرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري فيه، باعتباره لب الجوانب الأمنية الأخرى، سواء منها الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية...و غيرها من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي، (عبد القادر فيدوح، رهانات اللغة العربية، الموقع الشخصي).

وإذا كان للاستثمار في التكنولوجيا الرقمية القدرة على دفع الإنتاجية بقوة، فإن الاقتصادات المتقدمة التي هي في طليعة الثورة التكنولوجية، قد تحتل مكانة متقدمة وتحتفظ بتفوقها، (بيبا نوريس، 2006، ص 18)، وفي هذه الحال فإن اللحاق بالركب مشروط بتعزيز الهوية الوطنية أنى كانت.

إنه من المبكر أن يتم الحكم على عجز الهوية الثقافية العربية في عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف، إذ أن العجز والقصور ليس في الهوية الثقافية ولكن في أصحابها، لأن الهوية بأهلها، تموت بموتهم وتحيا بحياتهم. فالمجتمع هو الذي يقدم الزاد للهوية، وليس العكس. وبالتالي فالقضية قضية تعزيز مكانة الهوية الثقافية، ومن ثم فإن المسألة هي في جفاف العقل العربي وجموده، كونه تعود على استسهال الأمور كما تعود على اللامبالاة، و عدم الاكتراث بالعلم والمعرفة.

و لعل هذا ما أفقد المجتمعات العربية الرضا في كل شيء، مما جعلهم يتجاهلون مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ساد الاعتقاد في العديد من الأوساط العربية أنهم جهلاء فعلا، مع أن الحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق، بدليل هجرة الأدمغة العربية إلى كل من أوروبا وأمريكا.

. الرأسمالية الثقافية:

لم تسلم القيم الثقافية العربية من القولبة التي هيأتها لها معايير الصناعة الثقافية. و بموجب التغير في مسار صناعة الثقافة عالميا، فقد احتكمت الهويات الثقافية المحلية للأقطاب والشعوب المتنوعة في الحضارة الكونية، بوصفها ثقافات حضارية متماسكة وهو ما أشار إليه كثير من الباحثين وبخاصة صموئيل هنتنغتون Samuel Phillips Huntington في كتابه: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي عام 1996، الذي أشار الى صراع الحضارات، وإعادة رسم هوياتها الوطنية، منها على وجه الخصوص(الصينية، واليابانية، والهندية، والعربية الإسلامية، والإفريقية، وأمريكا اللاتينية، بما في ذلك الهوية الغربية نفسها)، وأن ما ستؤول إليه هذه الحضارات يسمى أزمة هوية كونية، بحسب تعبير (هنتونغتون)، أزمة يبحث فيها الفرد- أيا كان وأينما كان- عن هويته من خلال سؤال مركزي: كيف يمكن تأكيد هويتي في ظل هذه الأرجاء اللامحدودة لفضاء المعنى المنفلت وإفلاس الحقيقة؟.

من هذا المنظور، أصبحت الثقافة العربية في أمس الحاجة إلى المزيد من التعزيز في الوجود، وهذا يعني أنه لا بد من ايجاد السبل السهلة لحماية ما لا يقبل التصنيع أو القولبة في المنظومة الثقافية العربية، و حمايتها من التطعيم بالقيم المكتسبة في الفضاء الرقمي. و بات ضروريا مواجهة المد الثقافوي culturalisme الساعي الى خلق ثقافة جديدة يحكمها الاستهلاك المطلق عبر وسائل رقمية فائقة السرعة و التأثير، وشعارات الصورة الدعائية المدهشة التي أصبحت تهدد كيان الثقافات المحيطة بها من جهة، و من جهة أخرى القضاء على الثقافات المحلية من الفضاء الافتراضي ذو المنتوجات الرأسمالية البحتة. حيث يتحول كل شيء إلى ثقافة تسلية مدفوعة الثمن، اضافة الى خلق تجارة ثقافية بوصفها شبكات ذات مغزى، موجهة إلى الثقافة الفرعية (الدونية sous-culture) بغرض خلخلة هويتها.

وعند هذا المنعطف تنجز صناعة الثقافة الرأسمالية انتقالها إلى رأسمالية ثقافية تامة النضج، مستحوذة -ليس على المعنيين بالحياة الثقافية والأنماط الفنية للتواصل التي تنقل نتاجهم وحسب- بل على التجارب الحياتية أيضا. وهذا ما أشار إليه ألفين توفلر حين قال: "إن صانعي التجارب سيشكلون في نهاية الأمر قطاعا أساسيا إن لم يكن القطاع الأساسي للاقتصاد...(وعندها) سنكون أول جيل في التاريخ يستخدم التكنولوجيا المتقدمة لصناعة أكثر المنتوجات سرعة في مرورها رغم أثرها الدائم ألا وهي التجارب الإنسانية (جيرمي ريفكين: 2009، ص 269).

وهو ما أفرز أزمة هوية عميقة في الذات العربية في خضم تراكم الإحباطات ، الهزائم الانتكاسات و كثرة العلل و زرع الفشل في المنظومة الثقافة العربية والتعليمية، خاصة تلك المسؤولة عن تكوين أجيال مكسورة، ومنصهرة في ثقافة مشوهة وهجينة من دون حام أو شفيع. وفى هذا الجو من الإخفاق الحداثي جاءت الهويات وهي معنى ثقافي جديد كمصطلح و كمعنى ويمكن حسبانه على ما بعد الحداثة كأحد سماتها الأساسية (عبد الله الغذامي، 2009، ص45).

ويعد الحديث عن موضوع صناعة الثقافة الجديدة حديثا غامضا إلى حد ما، ومفهوما فضفاضا سواء من الناحية الدينية أو القومية أو العرقية أو حتى في بعض الخصوصيات اللغوية والمعرفية، أو في أنماط الحياة، إلى غير ذلك من الظواهر التي تربط الإنسان بالانتماء المزدوج في هويته المركبة، بما في ذلك عدم الانسجام داخل كل فرد في خياراته المتعددة أحيانا، وفى خصوصية انتماءاته المضطربة. ووثبا على الجهود المبذولة لمفهوم صناعة الثقافة الجديدة من المفكرين والفلاسفة، كل بحسب رغبته في الدفاع عن انتمائه، أو طريقة تناوله لهذا الموضوع العسير منذ مقولة سقراط الفلسفية الشهيرة "اعرف نفسك بنفسك". (هيدجر، 2001، ص5).

وإذا كانت الصناعة بهذا المنظور الذي رسمته تكنولوجيا المعلومات، فكيف استطاع المنظور الثقافي العربي نقل هذا المصطلح إلى معناه الأنثروبولوجي الثقافي، والدراسات الثقافية على وجه التحديد؟ وكيف يمكن للبحث أن ينمي هذا المصطلح بكل ما يحمله المعنى من فضاء تأويلي يتناسب مع راهنية المسار الفكري، والمعطى الايديولوجي؟ وإلى أي مدى استطاع مصطلح صناعة الثقافة أن يحرك الفضاء الإنساني من هواجسه بوصفها منبعا للرؤيا، وخوضا في التجربة؟ وقبل ذلك ما الذي يعني الفكر العربي من هذه الصناعة بعد تداخلها مع مجموعة من الخطابات والمفاهيم الحديثة، وانصهار بعضها في بعض؟

.منصات التواصل الاجتماعي و أزمة الهوية العربية:

دعونا نتحدث قليلا عن بعض دلالات الصناعة الثقافية للقيم الانسانية العربية من خلال البيئة الافتراضية، و لعل المشهد الاكثر تجليا، هو انخراط الانسان العربي في نظام الشبكات الاجتماعية الذي أتاح له تعاطي القواسم المشتركة مع غيره ممن يختلفون عليه جذريا و فرعيا في منظومة القيم الثقافية و على رأسها لغة التخاطب، حيث ذابت لغة الانا في لغة الآخر.

و انصهر مستخدمو شبكات التواصل الاجتماعي في بوتقة العالمية. حيث توحد نظام الارسال و الاستقبال، و توحدت منظومة الاشارات، و فرضت الصناعة الثقافية منطقها على جميع المبحرين عبر الفضاء الرقمي غير المحدود بالزمان ولا بالمكان. لعل فى كل هذا، وغيره من الأسئلة، ارتأينا أن نستقصي مسار صناعة الثقافة من منظور "كونية الاتصال" في ظل "التكنولوجيا الرقمية" وعلاقتها بالذات وبالآخر وكيف تعيد تأسيس نشاطها في النص الموحد و في الخطاب ذو البعد الواحد؟. و كيف تنخرط الهوية العربية في الواقع المعمول. وفى هذه الحال علينا أن نصف هذه الهوية و نحميها بكل قوة تاريخيا أو فلسفيا أو اجتماعيا أو أنثروبولوجيا أو ثقافيا. كما نحاول أن نبحث في مساعي صناعة الثقافة عن المساهمة في إعادة بناء مسار الذهن الذي باتت ترسم ملامحه مستجدات العصر ومستلزمات إعادة بناء الافتراضات الأولية الكلية للمعايير والقيم"(Heidegger; 1985, p.177).

لقد أصبح المثقف العربي وجها لوجه مع لائحة من التعليمات المفروضة عليه حيث تلزمه بمشاركة آرائه و مواقفه مع مجموعات فردية و جماعية لا يكاد يعرف عنها سوى الاسماء المستعارة التي قد تخفي خلفها فكرا قد لا يتناسب مع منطلقاته و لا يغذيها و لا يحميها ولا ينصرها حتى و ان كانت على صواب.

أدخلتنا الشبكات الرقمية في دوامة الصمت المتعالي و كتمت الاصوات و حولتها لمجرد أحاديث لا تعد كونها صورا واشكالا و دلائل لغوية تصفد الهوية الوطنية العربية و تحط من قيمة الفكر المتحضر و تجعلة يتنازل عن مكانته لصالح كبسولات تشبه مسكنات الالم حيث لا يتجاوز دورها منطق الالهاء و تضييع الحاجات الحقيقية للإنسان العربي واستبدالها بالحاجات المزيفة. وأكثر من ذلك أصبح لدينا خطاب نفسي للذات، خطاب يبدو شديد الشبه بالمرجعية السابقة، حيث فكرة الاستمرارية، والاستقلال الذاتي، والجدل الداخلي العميق النامي والمتفتح للشخصية. نحن لم نكن أبدا هناك، لكننا دوما فى طريقنا إلى هويتنا، ومن المفترض أننا عندما نصل هناك، سوف نعرف، أخيرا . وبمنتهى الدقة . ماهي هويتنا؟ و من نحن، تحديدا(ستيوارت هول، 2001، ص72).

وإذا كانت صناعة الثقافة لا تنتج حقيقة مطلقة، أو تبحث عنها، فإن نظيرتها "الهوية" هي ملتقى وسيط كل المعارف، تزيد من تأكيد حقيقة القيمة في الذات، غير أن بناء كل قيمة ثقافية مرهون بالتحول وفق ترتيبات خاضعة بالضرورة لنتاج الثقافة الجديدة أو داخل صناعة الثقافة العالمية في تأثيرها الفعال على الثقافة المحلية، بما في ذلك ثقافة الأطراف، الأمر

الذي يجبر الثقافة المحلية على الانعطاف عن كل ما هو جوهري فيها من ثوابت على النحو الذي قنن له أفلاطون حين أنكر تغير الأشكال الجوهرية، في مقابل التصور الوجودي الخاص للهوية التي تحمل سمات التغير بشكل مذهل وبلا كابح.

على امتداد العقدين الأخيرين، بعد أن أصبح جليا أن التكنولوجيا الرقمية تعيد بناء الهوية بل هويات جديدة قوامها الفورية المباشرة للأحداث، والطابع الحسي للمشاهد هي المادة الخام التي يتشكل منها الوعي" (دفيد هارفي، 2005، ص 78).

وإذا كان لتلك الهويات العظمى علاقة بهويتنا الثقافية والفردية، فإنها لم تعد تمتلك الفاعلية الاتصالية والبنائية، أو قوة الرسوخ التي كانت لها من قبل، بحيث تسمح لنا بمعرفة من نحن بوضوح بمجرد أن نضيف مجموع أوضاعنا إلى العلاقة بهذه الهويات. إنها لم تمنحنا شفرة الهوية كما فعلت سابقا في الماضي" (ستيوارت هول، 2001، ص 76).

5. المجتمعات الاستهلاكية و الثقافة المحلية:

توجد علاقة وطيدة بين الصناعة الثقافية الرقمية الوافدة، و بين مكونات الذات، الأمر الذي أسهم فى فقدان توازن الهوية العربية الإسلامية، بخاصة بعد أن أطلت علينا الألفية الثالثة باقتحام وعينا اجتماعيا وثقافيا في ضوء نظرية رونالد انغلهارت Ronald Inglehart "ما بعد المادية" التي رسخت مقولة انتشار ثقافة النزعة الفردية بمحاولة إعادة تكوين المجتمعات بطريقة راديكالية، تسعى إلى الوصول بكل ما تملك من وسائل اقتلاع جذري و بسرعة من منظور المصلحة والعقلية النفعية، وذلك بعد تدفق المعلومة الوافرة والمتراكمة، و هذا ما يطلق عليه بالمجال السايبري Cyberspace الذي بات يسهم فى توليد جيل جديد، تحكمه شبكات افتراضية عبر نظم تكنولوجيا المعلوماتية، ويشكل جسرا لعبور أفكار تتجاوز مركز المكان المحدود، ويحول التصورات الثابتة إلى تصورات متداولة.

وقد أحدث هذا المجال ثورة في فضاء المعلومات، ورجة عنيفة تجاوزت هزة ثورة كوبرنيك . وصار العالم يسير سيرا أعمى ما فتئت عجلته تزداد سرعة، ويحرك كوكب الارض أربعة محركات مرتبطة بعضها ببعض، وهي العلم و التقنية و الصناعة والاقتصاد الرأسمالي. وإن هذا المحرك الرباعي هو الذي يحرك كوكبنا الذي فقد توازنه. بالإضافة إلى ذلك، يمكننا أن نتصور أن هناك تطورا متصلا بالذكاء الاصطناعي وبالتنظيم الآلي يتيح للآلات تنظيم نفسها ذاتيا أي الإصلاح الذاتي. وأخيرا التكاثر الذاتي الذي تنبأ به تورنغ Turing "(إدغار موران،2009، ص285). والذي أصبحنا نعيشه اليوم مع عالم البوابات الإلكترونية ومحركات البحث، والتحكم فى المواقع من خلال الشبكة العالمية، وغيرها من محركات المجتمع الشبكي.

خلقت التكنولوجيا الرقمية من خلال تصاميمها الفتاكة سوقا تعتبر بمثابة نواة لا تبتلعها المدينة الحديثة، و أقامت مدارا يتحرك حول المجتمع السكاني، كما خلقت تجمعات جديدة تماما مثل الشركات و المصانع و الجامعات. لقد أصبحت بحق مصنع التركيب الآلي ذو التحكم الإلكتروني، (جان بودريار،2008، ص144) كأسلوب حياة جديدة، ينبغي الاحتذاء بمقتنياته ذات المواصفات الإشهارية، ومتابعة مستجدات الصراعات العالمية، فى آخر ما أنتجته الشركات متعددة الجنسيات، ومجاراة لهذا النسق صار الجيل الجديد يتولى ابتكار معانيه عبر اكتشاف الرموز الجديدة.

وقد كان لثورة الاتصال والمعلوماتية الدور الكبير في إحداث مجموعة من التحولات المترابطة، كلها، فى خلق فضاء افتراضي يهندس للوعي الجديد في كل مجالات الحياة اليومية، وهو ما أثر تأثيرا مباشرا على الأنساق المعرفية، بحسب تعبير توماس كون Thomas s Kuhn، في كتابه "بنية الثورات العلمية" وأن كل شيء خارج هذا المنطق يعد مشكوكا في نتائجه، وموضع مساءلة.

لذلك أصبح ما تقدمه صناعة الثقافة الجديدة من صرعات الموضة، نموذجا جديدا ينبغي تقليده، بوصفه خيارا جديدا، بديلا عن النموذج التقليدي وجسرا بين الثقافات، يربط المحلي بالعالمي، والذات بالآخر في تكوين ثقافة جديدة تؤسس لهوية جديدة تسعى لإرشاد المستهلك أو المتلقي إلى معنى اختيار ودلالات ما يعرض عليه من تجارب جديدة عابرة للقارات. أضف إلى ذلك أن نظام السوق لم يعد مقتصرا على عرض خدمات وسلع، بقدر ما ظل يعرض أفكارا ودلالات، تجاوبا مع خلق نمط جديد لهويات جديدة، وبثقافات مدروسة، تقوم على اعتبارات جمالية ذوقية لإغراء المستهلك المرتبط بالعالم الافتراضي وليس بالعالم الواقعي. فأصبح الفرد بموجب ذلك يبدي رغبته المشحونة بالاقتناء مهما كانت قيمة السلعة أو المنتج، بسبب ما يشاهده من رموز تحرك مشاعره التواقة للتجديد برؤية أفكار ما بعد الحداثة.

لقد أصبحت ثقافة التسوق نمط حياة، وبقدر من التأمل ندرك أن جيلا جديدا أصبح يتشكل على وجه الكرة الأرضية من ثمار صناعة الثقافة في عصر النسخ الآلي، إنه جيل مكتمل الملامح، وهو المجتمع الذي عبر عنه جان بودريار بمجتمع (فوق الواقع، أو الواقع المتعالي Hyperréel) كونه يعيش الحقيقة التي تخفي عدم وجود الحقيقة، ويحاول أن ينفي الواقع الوجودي و الملموس. وفى ظل هذا الواقع المتعالي الجديد ليس لنا إلا أن نستسلم لما تستحوذ علينا حالة التغير الشمولي فى جميع العلاقات الثقافية والمعرفية والاجتماعية والاقتصادية.

لم يعد المجتمع فى عصرنا الحالي يعتمد على تعزيز الروابط، وتمكين الأواصر وتوطيد النفوس على حب الخير، وتحقيق المنفعة العامة. أضف إلى ذلك أنه مع تنوع الخدمات تلاشت العلاقات، ومالت إلى طبيعة كل ما هو عابر، ولا عجب فى أن يصف جيرمي ريفكين Jeremy Rifkin فى كتابه"عصر الوصول" The Age Of Access المجتمعات الحديثة بأنها باتت تقاس بالخدمات الترفيهية، وأن قيمتها تتوقف عند الرغبة فى سرعة الوصول بأي شكل من الأشكال، الأمر الذي غير مبادئها و أتلف هويتها الاساسية و حول اتجاهاتها الثقافية إلى بوصلة أوقعتها فى معايشة الوهم وإشباع الخاطر العابر.

و ما هو سائد في حياتنا هو مصادرة القيم، بجميع أشكال هوياتها التقليدية نظير مبايعة التجمعات الكبرى للسوق العالمية للفكر و التحرر، لإشباع الرغبة الجامحة في الانقياد وراء الأهواء، بعد أن تحولت حياتنا إلى سلع، وأصبحنا مربوطين فيها بكل ما هو تجاراتي Commercialité.

بموجب ذلك أصبحت ثقافة الاستهلاك تهدد هوية الشعوب، وتبدد حدود العلاقات الإنسانية، وتخلخل المقومات الاجتماعية، وهو ما قد يؤكد، بنظرة استشرافية . تمخضها لتلد كائنا بشريا غريبا في أطواره، عجيبا في مزاجه، قلقا في تصرفاته، خاصة عندما يصبح السعي إلى الوصول هدفا، ونمط حياة مع جيل الشاشات المرئية، والصورة الإشهارية، وهو ما أطلق عليه دفيد هارفي David Harvey بالتراكم المرن الذي أصبح فيه المجتمع يوصف برمي سلع مستهلكة (وما يتبعها من تراكم فضلات)، بل هي أيضا القدرة على رمي القيم، وأنماط العيش، والعلاقات المستقرة بعيدا، ورمي الألفة مع الأشياء و الأمكنة و الناس، والقيم الموروثة فى السلوك والكينونة.

ومن خلال مثل هذه الآليات (التي بدت شديدة الفاعلية لجهة تسريع عائد السلع في الاستهلاك) بدا الأفراد ملزمين بالتأقلم مع ما هو جاهز للاستعمال، جديد باستمرار كما أنه آيل في أي لحظة إلى الزوال"(دافيد هارفي، 2005، ص333). وإذا كان التسوق في مجال الاستهلاك المادي مقبولا، لظروف حتمية، فإن ما هو غير مقبول، أن تكون ثقافة الشعوب بجميع مكوناتها سلعة مدفوعة الثمن نتسلى بها، بغرض تأمين الوصول السريع الذي من شأنه أن يغذي نشوة النصر بالتملك، و السعادة بالتميز ليس إلا.

6.الفجوةالثقافية:

إن الفجوة الثقافية لجيل البوابات، أو كما يطلق عليه جيل دوت كوم dot.com تصاحبها فجوة معظم مؤسسات المجتمع المدني فى بلادنا العربية على وجه التحديد وعلى رأسها الأسرة، بعد أن تمت مصادرتها هي الأخرى؛ لتندمج مع مخرجات السوق بجميع أطياف مكوناتها، على حساب مكوناتها الداخلية التي كانت تراعي فيها هويتها. وبصورة أدق تحولت الأسرة فى علاقاتها من تعزيز التجربة الاجتماعية الاصيلة إلى فصل العلاقات بعضها عن بعض، وهو ما أثر سلبا على نمط الخطاب الاجتماعي.

ناهيك عن السلوك الثقافي في خلق ذوق جديد، وأسلوب حياة جديدة. و هنا نصطدم بتساؤلات معاصرة و هي: ما مدى ازدهار وسائل التنوع الثقافي، وما تثمره التكنولوجيا الرقمية؟ وهل لنا أن نبرر أهمية المنفعة منها، من عدمها؟ أم أن عقولنا معمية وغير قادرة على تمييز الجيد من السيئ؟. إن جميع الفرضيات الاحتمالية والحقيقية تشير إلى تشجيع تعميم الفائدة من وسائل تكنولوجيا المعلومات، وما تحدثه من تحول كبير لإنعاش الرأي العام وتوعيته، وإكساب الذوق الرفيع، وتنمية المهارات الثقافية، عند التعامل معها بما تهدف إليه المصلحة العامة، والفائدة المشتركة، والقيم المتبادلة.

فإذا كانت الهوية التقليدية ترى في الأنساق الثقافية الجديدة، ثمرة معايير أفكار ما بعد الحداثة، الآخذة بالصعود في كل مرافق حياتنا اليومية، وأنها تشوه الذوق الرفيع، وتعمل على عدم الوثوق بالمبادئ، فإن هذه الأخيرة ترى في الأولى أنها متمسكة بالضمير الجمعي الواهي الذي لم يعد له مفعول في الحياة الجديدة، وأنها لم تعد تقوم بدور الإنتاج الوظيفي في علاقة الإنسان بالمحيط، وأن كل ما في وسعها القيام به لا يتجاوز الالتزام بمعايير المثالية الضابطة. لذلك ينبغي -في نظر أنصار صناعة الثقافة الرقمية- إعادة بناء تكوين الركيزة الذهنية التي تستند إلى الافتراضات بواسطة ثقافة وامضة تنبثق من الواقع،

ان مفهوم الوعي في سلوكيات أنساق الثقافة الجديدة مرتبط بمستعمليه، كون الوعي المعرفي تعبيرا عن كل ما يصدر منا، وهو ما تتناوله الدراسات العلمية بالتفصيل، انطلاقا من أن كل شيء دال بحاجة إلى وعي يعبر عنه. ويُشير في هذا المضمار رولان بارت Roland Barthes إلى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق مثلا صور أو أشياء خارج الوعي الثقافي الجاد، فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة المؤطرة. (Barthes، R، 1964، p.80).

إنّ فقدان الهوية اليقينية أو التقليدية، في ظل البعد الثقافي الجديد، جعل الوعي التواصلي، الذي من شأنه أن يحقق الإجماع، والتفاهم والحوار، ينحسر فى كل ما هو سريالي صوري، ينقصه النظام والمنطق، ومكبل بمصادرة الموقف. ولا شك في أن لتوجهات الثقافة المستوردة دافعا بالغ الأثر على ما أصاب الحياة الاجتماعية منذ العقد الأخير من القرن الماضي من تحول، وانفلات في مسار التفكير والإبداع، ولغة التواصل، الأمر الذي سبب ميلا عن الغايات في مبادئ الهوية والانحراف في كل السبل، والفساد في القيم، والضلال في التصور، والعي في التعبير بما لا يفيد المعنى على الوجه الصحيح. مما سبب سماجة في الذوق السليم، وميلا إلى الشك فيما أطلق عليه فرانسوا ليوتار بالسرديات العليا، أو ما وراء السرديات الموروثة، Grand narrative أو. Meta-narrative وينطبق هذا الانفلات والتحرر من ضوابط الثقافة الأصيلة حتى على المبدعين ومستعملي اللغة الراقية، لغة الخطاب الرسمي.

4. خاتمة:

لقد جاءت أفكار صناعة الثقافة الجديدة التي رسمتها أفكار ما بعد الحداثة لتقوض المبادئ والمسلمات المتضمنة في هويات الثقافات المحلية، وتجعل منها فعلا ماضيا، أي في حكم الإجراء المتجاوز، وتعويضها بثقافات جديدة تحاول أن تخلق جيلا جديدا، وهو ما يتفق مع ما تناوله كل من نيتشه وهايدغر في فلسفتيهما المرتكزتين على الرغبة في وضع أسس جديدة للفكر الإنساني الحديث، بحسب متغيرات العصر. ولم يعد هذا قاصرا على الثقافة العامة، بل لامس الفكر الإبداعي بوجه عام، الذي تأثر بمعالم التفكيك و التمفصل وأدخل مصطلحات باتت تبدد الوعي وتقوضه أكثر مما توحده، ومن دون أدنى حسبان لتوطين هذه الأفكار والمصطلحات بما يتلاءم مع بيئتنا وهويتنا، مثل اللغة الطفيلية والعقلية الجدلية المنطقية، والميتاحكاية، والميتالغوية، والثقافة الفرعية، وهي من إفرازات ما بعد الحداثة التي صدرت حشدا كبيرا من الأفكار متعارضة الدلالات في مفرداتنا الاجتماعية والثقافية.

و عليه، لم يعد باستطاعة المجتمع العربي أن يحتمي بضميره الجمعي، كما لم يعد للمرجعية دور في التوجيه، وهو ما جعل الوعي يفقد وجوده خصوصا حينما تفسخت القيم الثقافية العربية في الطابع الثقافي العالمي المحمي من القامات الرأسمالية الفارعة. أضف إلى ذلك أن "الناس اليوم لا يتوقون إلى الخلاص الشخصي، ناهيك بإعادة عهد ذهبي سابق، إنما للشعور وللوهم اللحظوي، للرخاء الشخصي، والصحة والأمان الذهبي (...) أن تعيش ليومك هو الشغف السائد، أن تعيش لذاتك وليس لأسلافك، أو للأجيال القادمة" (Christopher Lasch, 1979, pp 30-33).

.

5. قائمة المراجع:

الكتب:

- بودريار جان ، (2008) المصطنع والاصطناع، ترجمة، جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ط1.
- جيرمي ريفكين، (2009)، عصر الوصول -الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة . ترجمة، صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1.
- عبد العظيم الديب، (1993)، التبعية الثقافية، وسائلها ومظاهرها، ضمن كتاب ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل، جامعة قطر.
- عبد الله الغذامي، (2009)، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2.
- فتحي المسكيني، (2001) الهوية والزمان (تأويلات فينومينولوجية المسألة "النحن"، دار الطليعة، بيروت.
- لوسركل جان جاك ، (2005) عنف اللغة، المنظمة العربية للترجمة. بيروت.
- موران إدغار ، (2009)، النهج . إنسانية البشرية/هوية البشرية، ترجمة، هناء صبحي، هيئة أبو ظبي الثقافية والتراث، كلمة، الامارات العربية المتحدة، ط1.
- مالك بن نبي، (1997) مشكلة الأفكار، دار الدعوة، الاسكندرية.
- هارفي ديفيد ، (2005)، حالة ما بعد الحداثة . بحث فى أصول التغيير الثقافي . ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت.
- هول ستيوارت ، (2001)، هوية قديمة جديدة، إثنيات قديمة جديدة، ضمن كتاب الثقافة والعولمة والنظام العالمي، تحرير، أنطوني كينج، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

المقالات:

- مطاع صفدي، (1998)، الفكر بما يرجع إليه وحده . سؤال العتبات . مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 103/102، بيروت، لبنان.

المراجع الأجنبية

- Barthes (R), (1964), Eléments de sémiologies, éd. Du Seuil.
- Christopher Lasch, (1979), The Culture of Narcissism. American Life in an Age of Diminishing Expectations. NEW York Naorton.
- Haushildt, P & Wesson, L. (1999). When postmodernism thinking becomes pedagogical practice. In Teaching Education.Heidegger (1985), Essais et conférence ; que veut dire « pensés » paris.